

المحاضرة الافتتاحية

الدكتور/ أسامة الباز

المستشار السياسي للسيد رئيس الجمهورية

الاستاذة الدكتورة منى البرادعي عميد الكلية ، الاستاذة الدكتورة نادية مصطفى رئيس مركز البحوث والدراسات السياسية بكلية الاقتصاد، الحق انني معجب كثيراً بالمجهود الذي تقوم به الكلية والمركز في خدمة قضايانا القومية لان هذا واجب اساسي علينا خصوصاً في عالم جديد ، والاصل في الامور ان كل النخب السياسية في كل شعب هي التي تحدد طريقه و ترسم السياسات لان هذا هو واجبها والتزامها الاول والاساسي وبعد ذلك يمكن الاستتارة بما يطرح في الدوائر العالمية والاقليمية الاخرى واقصد عندما نتحدث عن دائرتنا ؛ دائرة الوطن العربي، والمفترض ان اهل هذه المنطقة هم الذين يضعون التصورات الاساسية للتحديات التي تواجه الامة والواجبات التي تقع علي الامة لمواجهة تلك التحديات والسياسات المختلفة والرؤى التي تطرح للمفاضلة بينها وللتنسيق فيما بين الاقطار العربية ؛ سواء في اطار جامعة الدول العربية او اطارات اخرى حيث نشهد حالياً تجمعات اخرى مثل البرلمان العربي الموحد وغيره. ايضاً انا احبي المركز على اتخاذ المبادرة لطرح هذا الموضوع الهام لاننا نمر بمرحلة دقيقة في تاريخنا قل ان نواجه مثلها او نجد لها مثيلاً في الفترات السابقة .

وفي السنوات الاخيرة جد عاملان على المسرح السياسي العامل الاول هو انه في اطار انتشار مفهوم الكوكبية او العالمية كما تسمى Globalization اصبح هناك اعتقاد لدى الكثيرين في خارج المنطقة وفي داخلها مؤداه ان ما يجري في منطقة ما يشكل اهتماماً ومصالحة للدول الواقعة في مناطق اخرى، كما يعتقد ان القوى الخارجية بدأت تعطى نفسها الحق ليس فقط في ابداء الرأي وانما المشاركة التي تصل احياناً الى درجة الضغط لكي تحث القوى الاقليمية على اتباع سياسات ونهج معين في التعامل مع المشاكل التي تواجهها . انما يظل - من الناحية الدستورية - من حق كل شعب ومؤسساته السياسية والدستورية ان يحدد لنفسه طريقه ويرسم السياسات التي تتفق مع مصالحه ونحن عندما نتحدث عن شعب عربي معين لا بد ان نربطه بدرجة او باخرى بمصالح الامة العربية ككل لاننا جميعاً نسلم بأننا ابناء امة واحدة فعلاً وان ما بيننا يتجاوز كثيراً الخصوصيات القائمة في كل قطر حتى وان تعددت اللهجات ومثل هذه الامور لكننا في الواقع نحن ابناء امة واحدة ذات رسالة خالدة ولدينا الكثير

من المشتركات في كافة النواحي والامور بحيث اننا نستطيع ان نقول اننا نشكل كياناً واحدة يتسع ايضاً لكي يشمل عديداً من الدول الاسلامية وان كانت هناك بعض الفوارق لكننا ايضاً مع سائر اقطار الامة الاسلامية نشترك في رؤى ومصالح معينة و في النظر الى الحاضر والمستقبل نظرة متقاربة .

في الآونة الاخيرة كثر الحديث وهذا امر طبيعي لم يكن مستبعداً عن الحاجة للاصلاح في منطقتنا وارى اولاً ان الحاجة الى الاصلاح ليست مسألة حديثة مستحدثة نشأت في هذه الايام وانما كثر الحديث عنها اليوم لعدة اسباب ؛ منها انه عندما نشهد حركة و تطوراً على الصعيد العالمي فلا بد ان ينعكس هذا بالضرورة على تصورنا للسياسة الاقليمية او في داخل الدائرة العربية لاننا نؤمن ايماناً جازماً بان مصالحنا واحدة لا تتباين على الاطلاق وخصوصاً من الناحية الاستراتيجية، اما من الناحية التكتيكية قد تكون هناك بعض المميزات التي تميز قطراً او مجموعة اقطار لاسباب معينة لكن هذا لا يتعدى الدائرة المحلية ولا يتسع اطلاقاً على الصعيد القومي .

واري ان مسألة الكونية فرضت علينا الاهتمام بما يجري في العالم وامتداد شبكة المصالح بين مختلف الاقطار والقوى الكبرى التي تلعب دوراً هاماً على الصعيد العالمي في اقتربها وابتعادها عن بعضها البعض ، اي انه حدث تطور هام يجب الا نغفله اطلاقاً بعد احداث الحادي عشر من سبتمبر 2001 لماذا ؟ لان بعض الاشخاص الذين ينتمون في معظمهم الى منطقتنا وينتمون جميعاً الى الامة الاسلامية قاموا بهجوم معين على مدينتين امريكيتين وكان لهذا الهجوم وقع الصاعقة على الشعب الامريكي و النخب الحاكمة وتلك القرية من مؤسسات الحكم . وبدأ يطرح السؤال : لماذا حدث ما حدث ؟ وما هو تفسير هذا ومن الذي حرض هؤلاء الناس الى درجة المغامرة و المقامرة بانفسهم وارواحهم لكي يؤذوا بلداً بعيدة عنهم تماماً لم يكن له دخل بعملية الاستعمار التي تمت في انحاء مختلفة من الوطن العربي والعالم الاسلامي، ولماذا الولايات المتحدة بالذات ؟ بل ان الولايات المتحدة نفسها كثيراً ما طرحت هذا السؤال Why us . بعد ذلك بدأ البعض يفكر خصوصاً المثقفين في محاولة التوصل الى تحليل ما حدث حتى ولو لم يكن مبرراً فكتب انطوني لويس كتاباً بعنوان What went wrong اي ما هو الخطأ الذي وقع والذي ادى بنا الى كل هذا لان هناك تطوراً و نقله جديدة في العلاقات الدولية وهذا التطور هو تطور سلبي خطير وبالتالي نريد ان نعرف من الذي سببه وما الذي احدث هذا الخلل اي انهم اعتبروه خلافاً على الصعيد الدولي او العالمي.

وبدأ البحث عن الاجابة لمعرفة ما الذي ادى الي الخروج عن النمط المألوف. وفي هذا تبارى الجميع في محاولة لتبرير اسباب ما وقع والدافع او الدوافع التي حفزت المدبرين والمنفذين لهذه العمليات على المخاطرة بانفسهم وارواحهم وان ينفذوا مثل هذه العمليات .

اغلب الاطروحات التي قدمت لتفسير ما حدث دارت حول محورين ؛ المحور الاول هو ان الاسلام وثقافته هما المسؤولان عن عملية غسيل عقول هؤلاء الاشخاص الذين فكروا وخططوا ونفذوا وضحوا بارواحهم لانهم وجدوا ان القاسم المشترك بينهم هو الانتماء للاسلام فقالوا لا بد ان الاسلام والثقافة الاسلامية هما المسؤولان بدرجة كبيرة عن تيسير عملية غسيل عقول هؤلاء وعن اقناعهم بالتضحية بانفسهم في سبيل غرض ما وحاول الناس معرفة ما هو هذا الغرض ولماذا نحن بالذات فهل ينظر الي الولايات المتحدة كقوة معادية واذا كان كذلك فلماذا. وكان معظم المفسرين الذين تصدوا لتفسير هذه الظواهر غير موضوعيين فكان فيهم نمط التفكير الشخصي القائم على الانحياز والتحيز خصوصاً ان الامريكيين لا يعرفون شعوب هذه المنطقة عن قرب اما الاوروبيون مثلاً يعرفوننا اكثر بكثير من الامريكان لانهم عاشوا معنا في انحاء مختلفة من المنطقة وتعاملوا معنا اما الشعب الامريكي فلم يعرفنا منهم سوى من كانوا يعملون في شركات النفط في بعض الاقطار العربية او في مهام سياسية محدودة وما الى ذلك ولكنهم لم ينخرطوا ويندمجوا معنا ولم يؤلف مثقفوهم اطروحات وكتباً يمكن ان تفسر او تقدم للعامة في الولايات المتحدة الثقافة والحضارة العربية والاهداف العربية وما الى ذلك، بل ان كثير منهم حتى الآن لا يعرفون كيف نفكر او كيف نعيش او كيف ننظر الى الآخرين وما الى ذلك وايضاً يجهلون الكثير عن الاسلام من الناحية الثقافية والتعليمية والدينية ومن ثم كان الامريكان يلجأون الى او يميلون الى تلك الاطروحات التي تقدم عنا بغير سند علمي لماذا لانهم بدأوا من فراغ ولم يقوموا بدراسة الموضوع منذ بدايته مثلما حدث مع الدول الاوروبية والدول الآسيوية التي هي قريبة منا. ونتيجة لهذا نجد ان نظريات شخصية وغير علمية وغير موضوعية نمت في هذا الوقت عن الاسلام والمسلمين باعتبارهم من الخواارج عن الاجماع الدولي .

وقالوا ان العناصر التي خطت ونفذت هذا الهجوم لم تستطع ان تصب جام غضبها على حكوماتها المسؤولة عن السلبات التي يعانون منها ووجدت ضحية معينة يمكن ان يرجع عليها هذا الغضب وهي الولايات المتحدة لماذا ؟ لان عدداً كبيراً من شعوب العالم المعاصر تشعر بالغيرة الكبيرة نحو الولايات المتحدة لانها قوى كبيرة تحتكر السلطة والمال والنفوذ وكل ما

يتطلع اليه البشر في حياتهم المعاصرة وبدأوا يقولون انهم يشعرون بالغيرة نحونا وان هذه الغيرة وصلت الى درجة الحقد علينا ومن ثم يكون من الطبيعي ان ينساق فريق منهم الى تهديدنا على هذا النحو دون ذنب ارتكبهنا ومن هذا المنطلق دعا الرئيس بوش في خطاب القاه في احدى الجامعات الامريكية بنورث كارولينا - احدى ولايات الجنوب - والقاء في 9 مايو 2003 اكد فيه الى الحاجة الى مبادرة اصلاحية في الشرق الاوسط سماها The US Middle East Partnership Initiative و كلمة Partnership البعض يترجمها بكلمة الشراكة و انا شخصياً لا افضل هذه الكلمة لان بها بعض التداخل مع لفظ الشرك و ارى ان الافضل استخدام كلمة المشاركة حتى تكون بعيدة عن معنى الشرك . وكان قد سبقه وزير الخارجية كولين باول اي ان بوش ليس اول من طرح هذا الموضوع على الرأى العام الامريكي لكن كولين باول - المعتدل العاقل - طرح في الثاني من ديسمبر سنة 2002 فكرة المبادرة او المشاركة بين الولايات المتحدة و بين الدول الاسلامية و دول الشرق الاوسط بالتحديد بهدف بدء برنامج تجريبي للقضاء على الامية وتطوير الانشطة الصناعية و التجارية وقد اضاف لها بوش محاور اخرى و اجراء اصلاحات في النظام القضائي ومساندة الجمعيات الاهلية وتعزيز حكم القانون في شتى انحاء الشرق الاوسط و اضاف نقطة هامة في حديثه لانه قال ان هذا المشروع الاصلاحى يتم تنفيذه بالتعاون والتنسيق بين حكومات الاقطار العربية والمؤسسات الاكاديمية والقطاع الخاص والجامعات الاهلية اي ليس في غيبة من القوى الفاعلة المختلفة في داخل مجتمعات الدول المعنية .

والمشروع المقترح ينطوى على تقديم الولايات المتحدة التمويل كاسهام في المشروعات المختلفة التي تحقق هذه الاهداف في المجالات الآتية : الجانب الاقتصادي ، الجانب السياسي، الجانب التعليمي، وما يسمى بتمكين المرأة والتمكين هو ترجمة دقيقة لكلمة Empowerment اي لا يتوقف الامر على التفعيل ولكن التفعيل مضافاً اليه النتائج التي تلقي بظلالها على صورة المجتمع وحركته وهو ما يسفر في النهاية الي التمكين .

وبدأ المشروع باعتماد 29 مليون دولار لبدء برنامج الاصلاح التعليمي والاقتصادي والسياسي في هذه المنطقة في عام 2002 ، و في عام 2003 اعتمدت الولايات المتحدة مبلغ 100 مليون دولار و في عام 2004 اعتمدت 86.5 مليون دولار وفي عام 2005 اعتمد الكونجرس 74.4 مليون دولار . وقالت الولايات المتحدة عندئذ انها سوف تلجأ الى الدول الصديقة الاخرى اي حاولت تعبئة الدول الاوروبية وبعض الدول الآسيوية الغنية القادرة على

العطاء للمساهمة في تحقيق اهداف هذا البرنامج الى جانب الولايات المتحدة بحيث يكون الاسهام مفتوحاً للدول الاخرى و للهيئات العامة و الخاصة كالشركات والهيئات البحثية وما الى ذلك .

وإذا القينا نظرة على هذه الاصلاحات ببعض التفصيل سنجد انها غير محددة تحديداً جامعاً مانعاً ، لكن من الممكن استخلاص من التصريحات الرسمية وغير الرسمية التي طرحت في هذا المجال ان الرؤية تقوم على الآتي :

اولاً : في المجال السياسي :

- تقوية الاحزاب السياسية ، والنظام الانتخابي والمجالس النيابية .
- العمل على توسيع مساحة الحرية السياسية .
- تعزيز دور وسائل الاعلام الحرة والمستقلة في المجتمع .
- بسط سلطة القانون والالتزام بحدوده وتدعيم المؤسسات الحكومية والقضاء .

ثانياً : في المجال الاقتصادي :

- تشجيع وتعبئة الاستثمارات الاجنبية والوطنية .
- العمل على تيسير الحصول على الدعم ونمو المشروعات الصغيرة ومتناهية الصغر .
- micro-projects .
- تعزيز دور القطاع الخاص لتمكينه من خلق وظائف جديدة وهذا بالطبع يعكس الحرص على فكرة الاقتصاد الحر المفتوح الذي يلعب فيه القطاع الخاص دوراً كبيراً .
- زيادة قدرة الدول الداخلة في هذه المشاركة على المنافسة في السوق الخارجي .

ثالثاً : في المجال التعليمي :

- توسيع المجال لتحصيل الدراسة الابتدائية والثانوية لجميع المواطنين اي ان يتاح التعليم لكافة المواطنين في المرحلتين الابتدائية والثانوية وخصوصاً المرأة .
- رفع مستوى التعليم الابتدائي والثانوي وذلك عن طريق تدريب المعلمين واعادة النظر في المناهج وتفعيل دور المجتمع في المنطقة التي تمارس فيها العملية التعليمية اي ان يكون هناك دور للمدارس والمعاهد في الالتقاء بالمجتمع في المنطقة التي يقع فيها نشاطها وتهيئة التلاميذ للتعليم الرقمي .

- الدعوى والمساهمة في بلورة مهارات تزيد فرص اصحابها للحصول على وظائف منتجة . فبدلاً من السعى للحصول على وظائف حكومية لا بد من تحفيز الشباب للاتجاه للحصول على وظائف انتاجية و ليس وظائف ادارية بيروقراطية .

رابعاً : في مجال تمكين المرأة :

- دعم الاتجاه لالغاء النظام القانوني القائم على سيطرة الرجال وحدهم ومساعدة النساء على الاسهام في بناء شتى مؤسسات المجتمع فالمرأة يجب ان تزيد اسهامها في بناء مختلف مؤسسات المجتمع من خلال التمكين السياسي و تعزيز مؤسسات المجتمع المدني .
- مساعدة القوى الاصلاحية في كل دائرة لتعزيز حقوق المرأة و تيسير تنظيمها و مجال تأثيرها في المجتمع .
- ايجاد المجال لمنح النساء الفرصة لتعزيز القدرات التي يمكن تسويقها اي تلك التي تجد مكاناً في سوق العرض والطلب سواء الاسواق الانتاجية او غير الانتاجية .

إذاً لو القينا نظرة على كل هذا يمكن ان نقول ما يأتي : هل مسألة الاصلاح يجب ان تتبع من الداخل ام يمكن لدولة خارجية تفصلها بحار ومحيطات ان تضع مخطط الاصلاح ، أليس اهل مكة ادري بشعابها ؟ السؤال الآخر : هل هناك صيغة معينة تصلح للاصلاح وتحقيق التقدم في كافة البلاد على اختلاف مستوى التقدم والاصلاح فيها ؟ فإذا كانت هناك اقطار تعرف الحياة البرلمانية واقطار اخرى لا تعرفها فهل يمكن ان يمنح الاصلاح في تذكرة طبية . وارى ان الاصلاح يحدث في اي بلد وفي اي مجتمع عن طريق التدرج ويمكن ان يبدأ باظهار الرغبة في الاصلاح والعزم على الاصلاح والالتزام بالاصلاح ولكن حركة الاصلاح ومضمون الاصلاح يمكن بالضرورة ان يختلف من قطر الى آخر و من بلد الى آخر بل حتى في داخل البلد الواحد فان الاصلاح في المدن ليس هو ما يحدث بالضبط داخل القرى والنجوع المختلفة لان هناك متطلبات مختلفة في هذا الشأن .

وقد حاولت الولايات المتحدة ان تنظر للاقطار في منطقتنا و في احيان اخرى تم توسيع المنطقة لتصبح الشرق الاوسط الكبير بعد ضم دول غير متجانسة في كثير من الاوضاع وجعلها تمتد من المغرب وحتى افغانستان وفي هذا تجاوز كبير لانه يقوم على افتراض خاطئ مفاده ان كل المسلمين يمرون بمرحلة واحدة في التقدم والتطوير سواء في النواحي السياسية او النواحي الاقتصادية و النواحي التعليمية وكذا تمكين المرأة ، وعلى سبيل المثال فان كثير من

الدول الآسيوية الإسلامية ليست المرأة في حاجة الى اصلاح كبير او جذري لانها ومنذ مدة طويلة نشأت وكانت تتولى مناصب هامة وهكذا ، كذلك فان هناك فارق بين المجتمعات التقليدية والمجتمعات الحضرية لان المجتمعات التقليدية هي تلك التي قامت اساساً على النظام البدوي والتي تلعب فيه المرأة دوراً محدوداً وحتى في الدولة الواحدة ففي فترات معينة تتصاعد الحاجة لتحقيق التطوير بهدف تحقيق التقدم في لحظات معينة اي انه ليس بالضرورة ان نمر جميعاً بنفس المرحلة لاننا ببساطة لم نبدأ من نقطة واحدة بل نستطيع القول ان الاقطار العربية - او الوطن العربي بالتحديد - يمكن ان تكون قد مرت بمراحل متقاربة في بعض الامور لكن في كثير من النواحي وبخاصة النواحي السياسية و المؤسسات النيابية فان المسألة اختلفت ولا يصح افتراض ان الدول العربية والإسلامية واحدة ومتطابقة . والمقصود بالإسلامية ليست فقط العقيدة وانما تلك المبنية على الحضارة الإسلامية التي تقرب بين افكار الشعوب والمفاهيم والسؤال هو : كيف تفسر الدول العربية المختلفة مثلاً مبدأ " وامرهم شورى بينهم " فهذا يحتاج الى تفسير داخل كل بلد طبقاً للتطورات ودرجة التطور الذي بلغته الدولة في المجالات السياسية وغيرها وليس في هذا اي انتقاص من دور الاسلام بالعكس فالاسلام كأى حضارة يتفاعل ويعمل في ظروف معينة ولذلك نجد في الاسلام تفصيلاً لكثير من المعاملات التي لم تهتم بها اديان سابقة لان هذه المعاملات كانت بدائية او لم تكن قد وصلت الى هذا التعدد وليس في هذا قدحاً في الاديان السابقة لاننا نؤمن بان الاسلام هو اضافة وليس الغاء للديانات التي سبقته جميعاً وبالتالي فاننا في هذا الاطار عندما طرح على العرب مبادرة الشرق الاوسط كان من الطبيعي ان يتباحثوا في الامر وبالفعل عقد مؤتمري قمة في تونس ثم الجزائر وكان التوجه هو الآتي : اننا لا يمكن ان نعترض على الاصلاح اطلاقاً لكن لا بد ان نأخذ في الاعتبار امرين اولاً ان الاصلاح هو شأن داخلي يختلف من مجتمع الى آخر حتى بين الدول التي تنتمي الى امة واحدة لان الظروف والتحديات ليست متماثلة تماماً صحيح ان هناك بعض التشابه لكن هناك اختلاف ايضاً . ثانياً - وهي النقطة المترتبة على النقطة الاولى - انه لا يصلح لتحقيق الاصلاح اعطاء الدولة ورقة او بطاقة علاج تصلح للجميع فالامور تختلف في داخل المجتمعات ، وفي داخل حتى القطر الواحد هناك فوارق . وبالتالي فنحن لم نعارض الاصلاح لاننا نريد الاصلاح ولاننا اول المستفيدين من الاصلاح ويمكن ان نأخذ الموقف الخارجي باعتبار انه يمكن ان يسهم في تمكيننا من تحقيق تلك الاصلاحات، كيف ؟ اولاً ان الاصلاح عادة ما يكون له ثمن او تكلفة فالدول الصديقة يمكن ان تساهم في التدريبات

والاصلاحات فمثلاً في مجال الاصلاح التعليمي يمكن عقد دورات للمعلمين وخصوصاً في العلوم الحديثة كما يسمونها في الازهر وكذا في اسلوب ادارة العملية التعليمية التي تحتاج الى خبرة عملية وعلمية وكون اننا نعتمد على غيرنا في بعض هذه الامور فان هذا امر لا تتريب عليه مع مراعاة خصوصيتنا لاننا لسنا تماماً مثل المجتمعات الاخرى ولسنا في درجة التقدم او التأخر الذي هم فيه فالنظرة تختلف من قطر الى آخر، وبالتالي فنحن نمضى في طريق الاصلاح ولكننا لا نقبل فكرة اطروحة واحدة ؛ فكرة المشاركة التي تقوم على تحديد اسلوب معين للاصلاح وانما نحن نقبل الاسهام في زيادة قدرة المجتمعات الاسلامية والشرق اوسطية على تحقيق الاصلاحات واذا كان الآخرين يريدون ان يساهموا في اعطائنا خبرتهم وتجربتهم فنحن نرحب بذلك لكن نحن لا نقبل املاءً يأتي من القوى الخارجية لانها ليست صاحبة المسؤولية ومن ثم يجب الا تكون صاحبة الرأي في اتباع نهج معين في الاصلاح في اي من هذه المجالات .

وعندما ننظر الى مسألة مثل تمكين المرأة فنحن اطلاقاً لا نتردد في هذا و ليس في حضارتنا وثقافتنا الاسلامية وما قبل الاسلامية ما يمنع ذلك فهذا الامر محبب لان المرأة مدرسة ولا بد ان تكون منفتحين على عملية الاصلاح لكن من منظور داخلي، قد نحدد مبادئ عامة في بعض النواحي لكن لا يمكن اطلاقاً ان يتمكن شعب آخر من اخبارنا بان هناك اسلوباً معيناً يجب اتباعه للوصول الى هذه الاهداف والمبادئ ، هم يستطيعون ان يعطون تجربتهم في الاصلاح بان يقولوا مثلاً ؛ لقد عالجتنا مسألة كذا بالطريقة كذا لكنهم لا يستطيعون اطلاقاً ان يدركوا احتياجاتنا بدقة او حتى ادراك قدرة الشعوب المختلفة على التعامل مع هذه الاصلاحات المطلوبة او حتى افتراض ان المطلوب في كافة الاقطار العربية والاسلامية واحد من المغرب الى افغانستان. وارى ان اكتفي بهذه المقدمة املاً في الاستماع من حضراتكم لاطروحات قد تتفق وتختلف مع الاطروحات التي قدمتها وشكراً .

وحول اننا مررنا بحقبة القومية العربية ثم حقبة فوائض النفط ثم نمر الآن بالحقبة الاسرائيلية وانا اختلف بعض الشيء مع هذا الطرح لانه لا يمكن القول ان الحقب تأتي منقطعة لان مفهوم القومية العربية ظهر منذ مدة طويلة وكانت الثقافة السياسية السائدة في المنطقة العربية ككل هي التمسك بالذات او الهوية والمفاهيم المستمدة من التراث ومن الواقع ، ورأى البعض ان من مصلحتنا الاستنارة ببعض الممارسات والاطروحات الحديثة التي ظهرت في اوربا لانها قريبة منا وكان دائماً هناك تفاعل وخاصة بين دول عبر المتوسط ولذلك لا يمكن القول ان المسألة

ظهرت فجأة بل ان فكرة القومية العربية نمت كثيراً في فترات معينة. النقطة الثانية هو اننا لا نشعر اننا نعيش الآن في الحقبة الاسرائيلية لان الحقبة الاسرائيلية تأتي عندما يكون معظم المواطنين العرب متجهين في صياغاتهم لرؤاهم للتحديات التي تواجههم والدور الذي يمكن ان يقوموا به مستمداً من رؤى اسرائيلية او ان تكون اسرائيل مساهمة في هذا الامر بنصيب الأسد لكن هذا ليس قائماً في الواقع وانا اتساءل مثلاً : هل اجد بينكم من يتجه اساساً للمفاهيم والممارسات الاسرائيلية والمحاكاة لاسرائيل في اي من نواحي الحياة والفكر عندنا ؟ اطلاقاً !!

فاسرائيل نشأت امس لكن الفكر والحضارة والثقافة العربية والاسلامية وكل ما يشكل الهوية لشعوبنا موجودة منذ بدء انتشار الاسلام ولهذا فأنا اعتقد اننا لا نمر بما يسمى بالحقبة الاسرائيلية واعتقد كذلك ان اسرائيل ليس لها دور في هذه المنطقة بل يمكن القول ان دورها في هذه المنطقة هامشياً لاسباب عديدة ، وانا اتساءل مثلاً : هل منا من يعتقد ان المنطقة ككل او ان الامة العربية تمر بما يسمى بالحقبة الاسرائيلية ؟ فاسرائيل مقارنة بدول اخرى لا تشكل تهديداً بالنسبة لنا واسرائيل ليست قادرة على ان تهدد العرب ككل ؛ لا سياسياً أو ثقافياً او فكرياً ، فالشيء الذي يمكن ان يشكل الحقبة هو العقل العربي والسؤال هو : ما هي الدرجة التي تؤثر بها اسرائيل على الفكر العربي ؟ ولا يمكن القول مثلاً اننا قمنا بتغيير المناهج التعليمية وما الى ذلك بحيث ان نسبح بحمد اسرائيل ونقتدي بها في الاطروحات التي تقدمها واذا حدث ذلك فان الشعب يرفضه في المقام الاول لان هناك رفضاً كاملاً وخصوصاً ان اسرائيل ليست هي النموذج الذي يمكن ان يعرض على شعوب عريقة مثل شعوبنا لها حضارة ولها تاريخ طويل لان اسرائيل شيء محدث تماماً وبالتالي لا يمكن لتاريخ عمره نصف قرن الغاء رصيد ثقافي وحضاري استمر لقرون عديدة جداً فرصيد الحضارة في مصر وحدها بدأ قبل الاسلام ونحن لم نبدد تاريخنا ، وعندما نحاول التفكير في مشاكلنا وهوياتنا وتاريخنا وممارساتنا وما الى ذلك فهل ننظر مثلاً الى النموذج الاسرائيلي للاقتداء به واعتباره نموذج مضيء فنحن ننظر الى اسرائيل في كثير من ممارساتها باعتبارها ممارسات عنصرية ولا تتفق اطلاقاً مع فكرة الجوار وسياسة الجوار والدليل على هذا ان علاقتها بالدول المجاورة هي علاقات حرب ولم ينتهي هذا الا بالنسبة لمصر في الربع الاخير من القرن الماضي وهذا ليس معناه انه فرض علينا تغيير تفكيرنا لان هذا يعني ان نقوم باعادة كتابة تاريخنا والآن اسرائيل تعيش في مواجهة يومية مع الشعب الفلسطيني وزادت هذه المواجهة بعد تخلي اسرائيل او قيام اسرائيل باعادة فك الارتباط بين الضفة الغربية وقطاع غزة وانسحابها من قطاع غزة، وهناك حركة فلسطينية نشطة جداً

موجودة في كل انحاء الاراضي الفلسطينية بل وتشع على الآخرين لان بها فكرة الصمود العربي والاسلامي امام الاطروحات الاسرائيلية وبالتالي فانا ارى ان هذا ما يزال اكبر كثيراً من التأثير الاسرائيلي وانا لم ارى كثير منا متأثراً بكتاب يمتدح اسرائيل وخصوصاً ان كثير من الرؤى و الممارسات الاسرائيلية ليست حيل براقه بل سنجد ان كثير من الدول العربية اكثر تقدماً من اسرائيل بمراحل في نواحي معينة والتقدم الذي قامت به اسرائيل كان عسكرياً وجاء من خلال العمل على تحميل الاوروبيين مسؤولية المذابح التي حدثت لليهود وهذا ينطوى على حقائق وتجاوزات .

والمجتمع المصري على سبيل المثال يتكون من حوالى 70 مليون مواطن فكيف يمكن لشعب لا يتجاوز الخمسة مليون غزو المجتمع المصري الذي ينظر اليهم بنظرة سلبية، بل انني لم ارى احداً ينظر لاسرائيل على اعتبارها النمط او النموذج بل بالعكس ان اسرائيل هي النمط او النموذج لما يريد الناس ان يتجنبوه وليس الاقتداء به وتطبيقه .

والبعض يطرح السؤال الآتي : لماذا لم يبدأ الاصلاح الا بعد طرحه علينا من الخارج ؟ وهذا في نظري غير صحيح لاننا بدأنا الاصلاح منذ مدة طويلة جداً وليس هذا فقط في مصر وانما في كثير من الاقطار العربية المختلفة بل اعتقد ان حركة الاصلاح في مصر بدأت منذ قرون ، والامر بدأ بمقاومة الاستعمار الاجنبي ثم كيفية تطوير المجتمعات وقد تم طرح اطروحات كثيرة في هذا المجال بل وظهر اساتذة ومفكرون كثيرون اصلاحيون كالامام محمد عبده ومحمد لطفي السيد وفي الاقطار العربية نفس الشيء وان كان بدرجات متفاوتة وخصوصاً في المجتمعات الحضرية غير البدوية . بل ان الولايات المتحدة نفسها كانت تنظر الى الحركات القومية العربية بدرجة من الاعجاب لانها لم تكن تمثل خطراً على الولايات المتحدة وانما كان ينظر اليها على انها نهضة فكرية وتنموية واصلاحية كبيرة وبالتالي فنحن لا نريد القول اننا نمر بحقبة معينة يسيطر علينا لان الآن انا ارى رغبة كبيرة في انحاء مختلفة من العالم العربي لتصحيح الرؤية الامريكية وليس السعى نحو تطبيقها وانما السعى نحو تفسيرها وتعريفها للحكم على جزئياتها لمعرفة ما يصلح وما لا يصلح لنا. فرغم التاريخ الاستعماري للدول الاوروبية فقد تمكن المثقفون العرب من ان يحافظوا على الثقافة والحضارة العربية من ان تخضع للحضارة الاوروبية واذا كان هذا هو الحال مع الثقافة الاوروبية الاكثر احتكاكاً فانه من الطبيعي الا نتأثر بالثقافة الامريكية بالشكل الذي يمثل تهديداً، فنحن نعرف أوروبا لانها قريبة منا وتعايشت معنا كثيراً وكفى مثلاً ان ننظر الى عدد المثقفين الذي تم

ايفادهم الى فرنسا او انجلترا او ايطاليا او المانيا وهناك كثير من المسؤولين في انحاء العالم العربي تخرجت من الجامعات الاوروبية ولكن ليس معنى هذا ان اوربا سيطرت علينا لاننا نختلف عنها في كثير من النواحي والقيم و غيرها وانا اعتقد ان الاستفادة تتم في العلوم الفيزيائية اكثر من العلوم الاجتماعية لان العلوم الفيزيائية يمكن ان تكون علوماً عالمية لكن في العلوم الاجتماعية فان الامر يستند بشكل كبير على القيم والتاريخ والاهداف والرؤى والحركة في داخل المجتمعات المختلفة .

وارى ان الاصلاح يأتي في تقديري من القمة المثقفة لانها هي التي تدرك الحاجة الى الاصلاح وهي المطلعة على الاوضاع في الداخل والخارج والرؤى المختلفة ، فتقرير التنمية البشرية العربي الذي تم التوصل اليه في مكتبة الاسكندرية اسهم في اعداده وبلورته عدد كبير من المثقفين والمفكرين العرب في مجالات مختلفة وهؤلاء لم ينظروا الى ما تريده الانظمة الحاكمة وعلينا ان نخرج من اذهاننا فكرة ان هناك صراعاً وتناقضاً بين الانظمة الحاكمة وبين ما تريده الشعوب لان الانظمة الحاكمة هي جزء منا وليست هناك انظمة حاكمة مستوردة او دخيلة او عميلة وصحيح انه في الماضي كان بعض الحكام يعتمدون على دول اجنبية لحمايتهم لكن هذا لم يعد قائماً وانا لا اعتقد ان ما يحدث في العراق هو تطوير ونهضة في اي مجال فالولايات المتحدة ذهبت الى العراق بدعوى ان العراق يعمل على حيازة وتطوير واستخدام اسلحة الدمار الشامل وانه يشكل تهديداً لأمن المنطقة وقد رأينا ما فعلته الولايات المتحدة في العراق حتى الآن، وماذا حققته لشعب العراق، فهل ننظر الى ما يحدث على انه نشر للحرية والثقافة والحضارة ؟ فهل نرى نقيض النظام السابق بكل مساؤه؟ فهل ما تحقق في العراق هو النموذج الذي نرنا اليه لا قدر الله . والمقصود بالاصلاح والتطور عموماً هو عامة الناس والشعب لانهم الاغلبية ولا يمكن للحكام ان يفكروا نيابة عن الشعب انما ما اقله هو ان الاصلاحيين والمفكرين عادة هم الذين يبدأوا الطريق لان الوعي الشعبي لا يتحقق الا اذا كان هناك شخصيات مستتيرة معينة تحاول ان تأتي بتعريف للواقع وتحدد ما تعتقد انه واجب التحقيق لكي نتقدم من مرحلة الى أخرى ومواصلة هذا التقدم وانا هنا اقصد بالانخبة النخبة المفكرة التي تبدأ بتحديد الملامح او الاطار العام للتطوير والاصلاح في كل مرحلة لان الاصلاح عملية واجبة باستمرار والتاريخ في حالة حركة مستمرة ولا يعقل ان يكون التاريخ في حركة مستمرة ونحن نكون في مرحلة او موقف الثبات والتحجر بل لابد ان نواكب حركة التاريخ والذي يعنى الاصلاح الدائم وباستمرار والسؤال هو : من الذي سوف يشارك في تحقيق هذا

الاصلاح ؟ ففي النهاية نحن في حاجة الى اسهام المفكرين او الطلائع في ان تدلي بدلوها وان تقدم البدائل وهناك فارق بين المثقف والمتخصص وغيره، انا اعتقد ان هناك فرصة في مختلف انحاء الوطن العربي لتحقيق نهضة نابغة منا ويمكن الاخذ من الآخرين ما يفيدنا في الوصول الى اهدافنا ونحن قادرون على ان نلفت نظر الآخرين الى قدرتنا والاسهام الحضاري المشترك. ولذلك انا اعتقد انه يتعين علينا خوض هذا المضمار دون خوف لان الحضارة العربية ليست حضارة ضعيفة او هشة يخشى عليها من الحضارات الاخرى بل بالعكس فالحضارة العربية قديمة وعريقة وبها الصالح والطالح مثل اي حضارة اخرى. ولا يجب ان نكتفي بما يطرحه الغرب او الولايات المتحدة وانما علينا ان ننظر الى دولة مثل الصين ايضاً ومحاولة النظر الى الاسلوب الذي اتبعته في تنمية مواردها؛ البشرية والطبيعية وشكراً .